ISSN : 2543-3938

ابن المرأة الأندلسي وجهوده في التصوف وعلم الكلام

Ibn Al Maraa Al Andalusi
His contributions to Sufism and speculative Theology

أ.زوهري وليد، جامعة المدية الجزائر

تاريخ الإرسال: 2017/06/09 تاريخ القبول: 2018/01/02 تاريخ النشر: 2018/03/31

ملخص

يسلط هذا البحث الضوء على جهود واحد من أعلام التصوف الأندلسي العاملين، الذين لم يلقواالعناية الجديرة بهم بسبب الانحصار في دائرة بعض المتصوفة التقليديين الذين كثر الاهتمام بهم ، وتشعبت حولهم الدراسات والابحاث ، مساهمة منا في تجلية هذه الشخصية العلمية والتعريف بمكانتها في تنشيط الحركة الثقافية الإسلامية في الأندلس ، واستقراء أقوالها في أهم مسائل العقيدة والتصوف، والتوصل من خلال ذلك إلى تحديد مذهبها الاعتقادي وقد ظهر أنها آخذة بطريقة مستقلة، متوسطة بين المتكلمين والصوفية الفلاسفة، مع ميل إلى أقوال الأشاعرة.هو المفسر الصوفي المتكلم:ابن المرأة الدهاق

الكلمات المفتاحية: التصوف- علم الكلام-الحياة الفكرية- الأندلس-الفقه

ABSTRACT

The study trace back the overall efforts of one of the most influentialSufiEsoteric philosophers in MuslimSpain, of 6 th and 7 th century(Hijri)-Ibn Al Maraa Al Dahhaq- who dies in 616 Hijri,the essenceof his Sufi teachings was the search of unity between the Individual and the godhead often by way of an ecstatic experience, HenceIbn al dahhaq famous outcry by his extreme Sufi conduct which the non -Sufi Muslims considered blasphemous.

Key words: Sufism-speculative Theology-Intellectual life-Al Andalus-Islamic jurisprudence

ISSN : 2543-3938

نالت علوم الشريعة عند أهل الأندلس والمغرب العناية الفائقة والتقدير الفريد، حيث كانت الجذوة التي أشعلت فتيل نهضة حضارية راقية، فلمع نجم أساطينمن علماء الفقه و الأصول و التفسير و الحديث والتصوف وعلم الكلام .

يسلط هذا البحث الضوء على جهود واحد من أهم أعلام الأندلس، مساهمة منا في التعريف بسيرته ومؤلفاته ، صاحب هذه الشخصية – وإن لم ينل حقه من البحث والدراسة - فقد كان له أثر واضح في عديد جوانب حياة الأندلسيين الفكرية ،هوالمفسر والصوفي المتكلم :ابن المرأة الأوسي الأندلسي.

لقد قسمت البحث إلى مطلبين اثنين،تحدثت في الأول منهما عن سيرة ابن المرأة الذاتية ونشأته العلمية، مع توضيح ذلك بالحديث عن أحوال عصره، وبيان أثره في الحياة العامة، ثم استعرضت شيوخه وأقرانه وتلامذته، وفي القسم الثاني قمت بدراسة جهوده وآثاره العلمية، مبتدئًا بالحديث عن جهوده في مجال الدعوة والتدريس،، و أركزعلى جهوده في مجال التصوف وعلم الكلام، وقراءة في مصنفه شرح محاسن المجالس.

سيرته:

هو:ابراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهاق الأوسي المالكي يكنى بأبي إسحاق ويعرف بابن المرأة[1]من أهل مالقة ، حيث عاش فيها دهرا طويلا ثم انتقل إلى مرسيّة باستدعاء المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز ،زار العديد من البلدان أهمها تلمسان حيث التقى شيخه الشوذي الحلوي في إحدى الزيارات العائلية[2] وبموت الشوذي انتقل ابن المرأة إلى مرسيّة تسبقه شهرته في علم الكلام والتصوف

كانت وفاته رحمه الله في سنة 616ه ذكر ابن الأبّار في تكملة الصلة أن وفاته كانت عام 611ه

هو فقيه مالكي حافظ ذاكر للحديث والتفسير والأدب والتصوف غلب عليه علم الكلام.

كان في مالقة يتاجر في سوق الغزل ،وكان صاحب حيل ونوادر يلهي بها أصحابه ويؤنسهم ،حسن الفهامة والمعاشرة ،شاهد منه بعض العلماء ما يخالف الشرع فنافروه وباعدوه، كان يستطيعأشياء غريبة من الخواص وغيرها وبذلك فتن الجهلة[3]

أتى علم التصوف من باب علم الكلام فعكف على شرح مؤلفات الأشاعرةتحت رعاية السلطة الموحدية ، ولعل أهمكتاب للمذهب الأشعري هو الإرشاد لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني (ت478ه-1085م)[4]، كما ظهرت له شروح كثيرة كان لها دور كبير في رسوخ العقيدة الأشعرية بالمغرب والأندلس، حيث مثل سلطة مرجعية قوية لمجموع ما ظهر من المتون الأشعرية ومؤلفات شارحة أو ناظمة لمبادئ هذه العقيدة[5] ولابن المرأة أيضا شرح أسماء الله الحسنى وكتاب في إجماع الفقهاء فرغ منه عام 610ه وشرح محاسن المجالس لابن العريف وهو موضع بحثنا، والملاحظ أن طابع التصوف باد في هذا الكتاب بصورة واضحة، ولكن له من العناية بتحقيق المسائل الكلامية الحظ الأوفر.

شيوخه:

لا شك أن ابن المرأة قد أخذ عن عدد من علماء عصره، وقد أشار إلى ذلك أصحاب التراجم و التواريخ، ومنهم:

ISSN : 2543-3938

-أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم[6]يرتفع نسبه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد ونشأبفاس وكان من كبار زهادها كان أبوه من كبار الصالحين وكذلك أخوه وعمه ،توفي أواخر شعبان عام 559هـ ودفن بفاس يتردد على زيارته الناس حتى اليوم لأجل بركاته ،مشارك في علوم الشريعة ولكنه إلى علم التصوف والتحقيق أميل ، كانت له صحبة مع أبي الحكم بن برجان[7] فنادى الناس بتكريمه وشهود جنازته بعدما أمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين [8]برميه في المزبلة .

-عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاريأبو القاسم بن حبيش[9]عالم بالعربية والقراءات، بارع في النحو، من أهل المرية ولد عام 504هـ ولي القضاء بجزيرة شقر ثم بمرسة عن سن عالية حيث توفي عام 584هـ كان الناس يهلكون من الزحمة على قبره له "المغازي" .

-أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي التلمساني المعروف بالحلوي[10]إمام العارفين وسيد الصالحين نزيل تلمسان نسبت له التصرفات الغريبة ، كان قاضيا بإشبيلية ثم آثر ترك مهنته وبلده من أجل التصوف متجها إلى تلمسان مبشرا بهمتخذا الغناء والإنشاد سبيلا لذلك ،كما انصرف إلى تعليم الحديث والتفسير الذوقي للقرآن الكريم توفي الشوذي مع مطلع القرن السابع الهجري تاركا في تلمسان أكثر من مريد .تحدث ابن المراة عن لقائه ابن المرأة بالشيخ الشوذي : "فخرجت إليه من الغد فوجدته جالسا بالمسجد لوعدي، فسلمت عليه وجلست بين يديه، فقال: ما الذي تريد قراءته؟، فقلت: ما ألهمك الله إليه. قال: اقرأ كتاب الله العزيز أولا فهو أحق أن يفتتح به، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم وقرأت بسم الله الرحمن الرحيم فتكلم في فضلها عشرة أيام، ثم قرأت عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شيئا من الأدب، قال المخبر عنه فكل ما تسمعونه من أدب مني فمنه استفدته وعنه أخذته في مدة حولين كاملين"[11]

تلاميذه:

-أبو محمد عبد الحق بن برطلة الأزدي[12] من أهل مرسيّة عالم في الفقه والحديث ولد سنة 580هـ وتوفي بتونس العام661هـ كانت جنازته مشهودة .

-أبو عبد الله محمد بن أحلى[13] انتقل من الدراسة والعلم إلى الرساية حيث أصبح من أمراء الأندلس بلورقة قاوم الأسبان عند دخولهم مرسيّة عام 640هـ ، كان كأستاذه يمزج التصوف بعلم الكلام له أشعار كثيرة تبرز معتقده اختار ابن الأبار أجملها موردا إياها في "الحلة السيراء" ، وقد ذكر ابن الخطيب في "روضة التعريف" أن ابن أحلى من جملة أساتذة ابن سبعين[14].وا لظاهر أن ابن سبعين لم يتتلمذ على ابن دهاق بالأخذ عنه مباشرة لأن ابن سبعين ولد سنة (614هـ) وكانت وفاة ابن دهاق سنة (611هـ)، ويبدوا أن ما ذكره المترجمون لابن سبعين عن أخذه عن ابن دهاق، يعني تتلمذه على كتبه، أو أخذه عن بعض تلاميذ ابن دهاق كابن أحلى، إذ يذكر الفاسي في "العقد الثمين" أن ما ظهر به ابن سبعين مأخوذ من عقيدة ابن دهاق وابن أحلى[15]

بيئته العلمية:

تأثر ابن المرأة بأجواء الحركة الصوفية المجددة التي عرفها الاندلس نهاية العصر المرابطي وحتى قيام الدعوة التومرتية وظهور أعلام كبار أمثال الشوذي وابن قسي[13] وابن برجان وابن العريف[16]فغدا-وبكل ما كان يتبناه من اتجاه صوفي كلامي –حلقة من الحلقات المفصلية الفاعلة في نشوء التيار المناهض للآراء الفقهية المالكية

ISSN : 2543-3938

التقليدية،حيث رمي علماء المرابطين بالشرك و التجسيم لتمسكهم بظاهر الآيات المتشابهات، وحُمل المغاربة على الالتفاف بمذهب التوحيد الكلامي و العلوم العقلية وقد صور ابن بطلموس دور المهدي في عناية اهل المغرب والاندلس بعلم المنطق ضمن دوره في نشر فكر الغزالي (ثم لم تكن الأيام الا قليلا وجاء الله بالمهدي رضي الله عنه فبان به للناس ما كانوا قد تحيروا فيه وندب الناس في قراءة كتب الغزالي وعرف مذهبه أنه يوافق فأخذ الناس في قراءتها واعجبوا بها وبما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم روا مثله قط في تأليف، ولم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي الا من غلب عليه افراط الجمود من غلاة المقلدين)[17]و ظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية و قامت الدولة الموحدية تحمل مذهبًا كلاميًاجديدًا ، و كان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية. وإن كانت كتب الأشاعرة في علم الكلام معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغربوالأندلس[18]

وفي مرسية بجوامعها وزواياها ظهر اتجاه جديد يعرف بالشوذية نسبة إلى أبي عبد الله الشوذي الحلوي التلمساني الذي نقله ابن المرأة إلى مرسيّة تسبقه شهرته في علم الكلام والتصوف **فاشتغل عليه أهلها بعلم الكلام** و"جاهر بمذهب ابتداع لم يُسبق اليه"[19]فترأس فِيهِ واشتهر بِهِ ولم يزل بمرسيّة ينَاظر عَلَيْهِ ويُتحَلَّق إِليه إِلَى أَن تُوفي بهَا فِي صدر سنة إِحْدَى عشرَة وستّمائة[20]**ومثله كان الإمام شرف الدينأبو الفضل السلمي المرسي[21] وهو من أكثر من نشر هذه الطريقة، ثم اشتهر من بعده من أصحاب بن المرأة وغير أصحابه أعداد في بلدان شتى، وكان أبو عبد الله ابن أحلى قد لزم بمرسيّة بن الدهاق يحدثه حوله فأصبح من أكثر المتكلمين الداعين إلى الاعتقاد الشوذي الناصر له[22] وزاد انتشار هذا المذهب وكثر أتباعه فيه من أهل بلده ، ومنهم أيضا عبد الحق بن سبعين المتأثربسابقيه[23] فقد أخبرنا ابن الخطيب أن ابن أحلى من جملة أساتذة ابن سبعين ويقول بدر ابن جماعة ولا شك أن هذا الذي ظهر به ابن سبعين هو مسترق من عقيدة بن المرأة و ابن أحلى وأتباعه إذ كانوا كلهم اشتغلوا بمرسيّة[24]**

انتشر في المدينةجمع من العلماء والفقهاءفقد كانت تموج بحركة علمية زاهرة وأهلها يحبون العلم حبا جمًّا، قال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مرسيّة، فتشبث بي أهلهايسمعوا علي الغريب المصنف[25] كما انتشرت فيها حلقات العلم التي يتصدرها أئمة أعلام، ويقصدها طلاب العلم ومحبوا الثقافة والمعرفة"فقد كانت حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور"[26]

نافس تمدن الأندلس والمغرب أمهات المدن الإسلامية، حتى جذبت مساجده الأوروبيين الذين وفدوا لارتشاف العلم من مناهله و التزود من الثقافة الإسلامية، فقد بذل أمراء الأندلس جهدهم في إحياء العلم و إطلاق حرية التعبير والبحث وتوجيه كبير عنايتهم برجال الأدب والفن والتربية [27]،فأخرجت البلاد سادة الفقهاء المحدثين و كبار الفلاسفة والأطباء.

لقد أصبحت الأشعرية المذهب الرسمي للدولة فقد أتابن تومرت إلى السلطة بأشعرية عميقة تلقاها من الغزالي، واتخذها مطية سياسية لتثبيت الحكم الموحدي، فطعن على أهل المغرب إمرارهم المتشابهات كما جاءت، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم[28].يقول ابن خلدون: «وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار

للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، ففطن أهل المغرب لذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بالتوحيد[29]»

غير أن هذا التوجه في حركة ابن تومرت لم ينفصل عن أهدافه السياسية المعلنة بشكل بارز، فنراه يتذبذب في مواقفه بين خليط من الأفكار والمفاهيم ذات امتداد شيعي أو ظاهري أو معتزلي في بعض الأحيان، وهو أمر لفت انتباه المؤرخين. يقول المراكشي: «وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيئاً[30].»

فعلى الرغم من تشبعه بأفكار كبار الأشاعرة كالهراسي والغزالي والطرطوشي، إلا أنه لم يكن أشعرياً خالصاً، حيث نجده يدعو إلى فكرة المهدوية الشيعية والعصمة، مما حدا ببعض الأشاعرة المتأخرين وهو الفقيه أبو الحسن علي اليوسي إلى الحكم عليه بالضلال[31]،وعلى العمومفالظاهر أنمشكلةالمذهبالفقهيلمتعدمطروحةكما كان الأمر عليه في عصر المرابطين فالمذهبالمالكيزاحمهالمذهبالحزميالظاهري[32]،والآراء الصوفية الكلامية ،وفي علاقة المهدي بن تومرت بالفقه المالكي تضاربت الآراء في تحقيقها، فبينما يذهب البعض إلى القول بمالكية ابن تومرت، وأنه كان معجباً بالمذهب المالكي مفتتناً به، إلا أنه كان يمقت علماء المرابطين، فرماهم بالجهل والطغيان والتجسيم والكفر ولذلك هاجم سلفية الإمام مالك في التوحيد ولم يهاجمها علانية في الفقه[33]، وكان يسبح في خضم المالكية[34]في حين ذهب البعض الآخر إلى التشكيك في مالكية ابن تومرت، وأنه كان يهدف من وراء دعوته في التوحيد إلى محو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة[35]، وأن مسألة الظاهرية ليست آتية من عبد المومن ثم يوسف فقط، وإنما منشؤها الأصلي من ابن تومرت[36]

يمكننا القول أن البيئة الثقافية التي تترعرع فيها ابن المرأة كانت مشجعة نسبيا [37] على نموِّ هذا الاتجاه الصوفي المجدد المازج بين الآراء الصوفية والكلامية .

جهوده العلمية:

في مجال التدريس والتوجيه:

لم تسعفنا كتب التراجم والطبقات في رسم صورة واضحة لنشاط ابن المرأة الدعوي ،إلاأننا لانشكأن له باع طويلا في الميدان، فهو سليل المدرسة المسرية التي ينتمي إليهاابن عربي[38]وبن سبعين[39] والششتري[40]التي كان لها تأثير على المدرسة الشاذلية وخاصة عند بن عباد الرندي[41] وأما في مجال التدريس فلا شك في أن ابن المرأة كان له جهد في هذا الميدان أيضًا، فقد ذكر في كتب التراجم بعض ممن تلقى العلم عنه من الأعلام ذوي المقام الرفيع اللذين حملوا عنه التفسير الذوقي للقرآن و العقيدة الأشعرية .

جهوده في الفقه:

إن التلازم بين الفقه المالكي والعقيدة الاشعرية سمة من سمات المالكية بالغرب الإسلامي الموحدي فقد تشبت المغاربة والاندلسيون منذ زمن الموحدين بالعقيدة الاشعرية حتى أضحت ثابتا من ثوابثهم الدينية ومقوما من مقوماتهم الفكرية

ISSN : 2543-3938

أسهمت الأشعرية رفقة المذهب المالكي والتصوف في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب والأندلس جنبهما كثيرا من القلاقل والفتن التيكانت تدور رحاها في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي .

على الرغم من ميل ابن المرأة لعلم الكلام والتصوف إلاأن اهتمامه بالفقه كان بارزا أيضا بمؤلفه الضخم والذي يقع في خمسة مجلدات وهو شرح الإرشادلأبي المعالي[42] والذي يعد أهم ما خطه المؤلف، إضافةإلى كتاب إجماع الفقهاء.

جهوده في التصوف:

يعد ابن المرأة صاحب زهدوعبادةوسلوكعملي،ينتمي لمدرسة بن مسرة الاستسرارية التي تقول بوحدة الوجود ، فالموجودات حسبهم هي مجرد تجل لحقيقة إلهية واحدة بل إن الكون والوجود كله هما مجرد تجليات أو صور تتنوع، ، وماهي في الحقيقة سوى أشباح اتصفت بصفة الوجود بسبب سيريان الروح الإلهية فيها[43] وان كان بعض المتصوفة من أتباع هذه المدرسة أمثال ابن سبعين الذي لم يقل إلا بالوحدة المطلقة ، فإن ابن المرأة قد أفسح مجالا في مذهبه للوجود المقيد فيقول:«فالعقل هوالحاكم العادل بين الوجودين وجودمطلق، ووجود مقيد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها »[44]

تعد هذه القضية- وحدة الوجود- أصل مذهب ابن المرأة وعنها تتفرع مختلف المسائل،فالحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها متكثرة بصفاتها وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات،ومن لم يصل إلى الوحدانية لم يصل إلى حقيقة الوحدة التي هي ساحل بحر الأحدية، من أجل ذلك فالصوفي في سفر مستمر إلى الآخرة ،هو غريب على الدوام يتنقل من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام «العارف إنما يرتقي من العمل إلى الحال حتى يكون همه وهمته الوصول لا يلحظ ثوابا ولا غيره ليس له شغل إلا الذكر فما دام يذكر ويرى أنه ذاكر فهو مع نفسه لم يصل بعد من حيث فرق فجعل ذاكرا ومذكورا فهو محجوب بذكره فإذا فني عن نفسه وغاب عن ذكره فقد وصل فكان الله هو الذاكر وهو المذكور »[45]ومن خلال هذه الأحوال والتجارب يلج العوالم الخفية وتخوض روحه اللطيفة رحلات العودة إلى العالم الطاهر بعد أن كان في عالم الوهم فالدنيا بمثابة منام مستمر«والعالم كله ظل للوجود الحقيقي للذات الإلهية»[46]

1-الفناء والبقاء:

إن التصوف علم لا يظفر به إلا من يلج بحار المجاهدات، ولا يصل إلى ساحله إلا من تحمل المشاق والمكابدات و سلك طريق المجاهدة للوصول إلى مكاشفة الأسرار، ومشاهدة الأنوار والدخول في عالم الفناء والبقاء وصولا إلى القطبية،ومن وصلها فهو من زمرة العارفين حيث« ارتقت هممهم من العمل إلى الحال ،فتراهم لا يظهر لهم كبير عمل وهم مع الله لا يشتغلون بغيره.وذلك أن أعمالهم قلت في الظاهر إلا عن الواجب فصارت أعمالهم قلبية »[47]

إن غاية ابن المرأة من ولوج درب التصوف هو الوصول إلى حقيقة التوحيد المتمثلة عنده في مقام الفناءولكي يحقق الصوفي فناءه الذاتي لابد من تحققه أولاً بالفناء الأخلاقي ولا يحصل ذلك بتبديل الأخلاق فقط بل بتصفية القلب والتوجه إلى الحق والزهد في الدنيا ،فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ، ودوام العمل لله وصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل إلى أن يملك الاختيار فيكون اختياره من اختيار الله لزوال هواه

ISSN : 2543-3938

وانقطاع مادة الجهل عن باطنه و العبد لا يتحقق بهذا المقام العالي وهو امتلاك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار وهو مقام الفناء وتمليك التدبير والاختيار من الله ،ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء مقام الغاية والنهاية «فلا يزال يقطع العلائق ، حتى يُخبر عن الله ويُخبر عن خَبره فإذا انتهى هنا لا يبق له من المُخبرات إلا خَبره عن خبرِهِ المرتبط بالله فخبره عن الله مُخبِر خبرَه وهو غير الله ولا يصح له مع وجوده الفناءفإذا أُخبر عن الله ولم يُخبر عن خَبره كان الفنا وتحقق وكان هو المُخبَر والمخبِر ولم يبق للعبد أثر يرده عليه ثم يرجع من حيث ابتداء كذلك حتى ينتهي ليصير له ذلك ديدنا»[48]

يلاحظ انضواء الفناء والبقاء في تجربة بن المرأة الصوفية تحت مصطلح الذكر، حيث يرد الفناء فيه بمعنى التخلص من الفردية المقيَّدة ليتحقق القرب المباشر مع الله سبحانه ، ويرد البقاء بمعنى اكتساب الصوفي لأعمق شعور وأوسع معرفة وأثبت إحساس بحضرة الله سبحانه، فالإقبال على ملازمة الذكر والأوراد ينتج التحقق بمقام التوبة والزهد وغيرها من المقامات، فلا بد للصوفي من ذلك ليثبت قدميه في طريق الله تعالى« رقاه من العمل إلى التخلق فاصطفاه وشغله بذكره ولا يزال يدع وذكره حتى يغلبه ذكره فإذا غلبه الذكرفنى عن ذكره اصطلمه فإذا اصطلمه صار كأن ما لم يكن وبقي من لم يزل »[49]

2-العلم والإرادة:

تقوم نظرية ابن المرأة في مبدأ المسؤولية والجزاء أن العلم تابع للمعلوم، العلم مظهر للمعلوم ،لارتباطه به كالسبب على المغيب وقد أتى بمثال السرقة حيث أن حدَّ قطع اليد لا يقع إلاإذا« تقرر السبب فهو المظهر للفعل ، وكذلك نقول في العلم هو المظهر للمعلوم فإذا أراد الله أن يظهر للعبد معلوما جعل عنده علما فتعلق بذلك المعلوم فعلمه»[50]

ترتب عن هذا الكلامأن العقل قاض ومسؤول عن أفعاله لارتباطه بالعلم والإرادةالإنسانية ،وعلم الله تعالى تابع لما يعطيه الجوهر الأول،بما هو عليه من الاستعداد والجوهر الأول لا يرتبط بالمتوهم وهو الزمان والمكان الذي هو سمة عالم الشهود فإذا انتفي الزمان والمكان أصبح العالم بأسره مُدركاً للبارئ جل جلاله«فإذا صدر الفعل بالقصد كتب له أو عليه فمن تدبر هذا وعقله وأعطى كل ذي حق حقه وعلم معنى الربوبية ومعنى الرسالة والعبودية »[51]

ينطلق بن المرأة بتحديد المسؤولية الإنسانية بالتفريق بين نوعين من الأمر:الأمر التكليفي، وهو الذي يخاطب به الله عباده فيطيعونه أو يعصونه على حسب ماكان مقدرا في الأزل، والأمر الواجب الجبري وهو الأمر المنفذ للإرادةالإلهية المطلقة .كما تناول ابن المرأة من خلال مؤلفه قضايا عديدة من بينها السماع، وقد أكد المؤلّف مشروعيته عند أغلب الصوفية ولو أنهم يختلفون في تفاصيله، فمن شأنه أن يفتح لهم أمور عجيبة وغريبة من الأسرار والمواهب والمنح والعطايا منها شهود الجمالوالإطلاع على الخفايا، والسماع في حق المريد خلال ابتدائه نافع معالج ، لا سيما إذا لم يقارنه صحبة الأشرار ، إلاأن قوة السماع تكون عند عدم المشاهدة فإذا حصلت ، اضمحلت ولاية السمع[52]

كان من الضروري أن يؤدي مذهب ابن المرأة الصريح في وحدة الوجود إلى نتائج لها تأثير في ميدان التكليف الشرعي فنظريته بتجاوز العلم اللدني مظاهر الشريعة جعلته ينصح المبتدئين أو كما سماهم "المتوسطين

ISSN : 2543-3938

المتلونين" بضرورة الصحبة والمحافظة على مظاهر الشريعة والتحلي بخلايق الورع إلىأن يرزقهم الله كمال مرتبة البالغين [53] فكما تُحمل النصوص على ظواهرها فإن فيها إشارات خفيّة ودقائق تنكشف لأرباب المجاهدات ولذلك قيل أن القرآن نَزَلَ وتَنَزّلَ، فالنزول قد مضى، والتنزّلُ باق إلى يوم القيامة، أي تنزل على قلوب أوليائه بما يلهمهم إياه في أوقات صفاء قلوبهم، ويفهمهم معناه إذا اختلوا بمحبوبهم.

جهوده في علم الكلام:

-قوله أن الله يسري في كل موجوداته ويسكن قلوب العارفين «فمعرفته محجّة العارفين بها أشرقوا على كل طريق يوصل إليه وبها ظهرت لهم الأشياء فعليك بملازمة من هو اقرب إليك من حبل الوريد » [54]

-فأما في مسألة إثبات وجود الله تعالى في نهج ابن المرأة مذهبًا يجمع بين مذهب أهل علم الكلام القائلين بأن معرفته تعالى استدلال و ببيان للبراهين العقلية الدالة على ثبوت وجوده تعالى ،و بين مذهب أهلال تصوف القائلين بأن معرفته أمر ذوقي عرف ان يف الاستدلال أصل إدراك وجوده لدى عامة الناس و ينفرد العارفون بالإدراك الذوقي النابع عن زيادة المحبة[55]

-أما موقفه من صفاته تعالى فإنه يبدو سائرً على طريقة تكاد تطابق ما اتفق عليه أكثر الأشاعرة فالله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الذي دلال عباد على وحدانيته و تفرده في صفاته بما أقام فيما خلقه من دلائل ذلك.

-و هو واجب الوجود من صفاته البقاء، و معنى كونه واجب الوجود أنه ألزم الموجودات معرفة وجوده بأن قهرها على تحقق الوجود لها بإيجاده إياه[56]

-و هو سبحانه متصف بالأولية و القدم كان الله عز وجل ولم يكن شيء قبله و لا موجود سواه مع صفاته تعالى على م ايليق بجلاله، و هي بذلك مخالفة لصفات الحوادث المخلوقين[57]

-لا يحد سبحانه بالمكان و الزمان فهو سبحانه خالق المكان والزمان لا يوصف بالأين لأن الأين مخلوق، و الذي أين الأين خالق .وأين يبحث بها عن مكان، وكان الله جل جلاله ولا مكان، وهو الآن على ما لم يزل .وكذلك تبارك وتعالى لا يجري عليه متى، لأن متى باحثة عن زمان، والذي أوجد الزمان لا يفتقر إلى زمان[58]

وختاما أرجو أن يقد وصلت إلى ما يخدم مرامي ،بتسليط الضوء على بعض الجوانب من التجربة العلمية والصوفية لابن المرأة الاندلسي ،ودراسة شخصيته وما خلّفه من الآثار المميّزة ،التي مازال الكثير منها مخطوطا، بحاجة لمن يقوم بدراسته وتحقيقه ونشره،فإني أرجو الله تعالى أن يوفقني الى متابعة ما بدأت بتحقيق كتاب شرح محاسن المجالس.

الهوامش والإحالات:

[1] - تكملة الصلة لابن الأبار،ج1،المطبعة الشرقية برعاية أبي شنب، الجزائر 1919،ص:200، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب:ج1، تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي القاهرة ،ط2،القاهرة1973،ص:325-326،الديباج المذهب لابن فرحون،تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان،دار الكتب العلمية بيروت لبنان،ط1996،1،ص:147،الوافي بالوفايات للصفدي،ج 6 تحقيق احمد ارناؤوط وتركي مصطفى،دار الاحياء للثراث العربي بيروت ط1،2000،ص:110 ، شجرة النور الزكية ج1 ،محمد بن محمد بن مخلوف المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة 1349هص:173،معجم المصنفين للتونكي ،ج4،مطبعة ورنكو غراف طبارة سوريا،1344هـ،ص:491،مقدمة جورج كتورة لكتاب بد العرف،لابن سبعين ،دار الأندلس ،ط1،بيروت1981،ص:19

[2] - كان في زيارة لعمته القاطنة بمدينة تلمسان، البستان لابن مريم المطبعة الثعالبية ،الجزائر1908،ص:68

[3] - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ،ص:330

[4] - سير النبلاء للذهبي،ج15 ، جار المعارف ،بيروت ،1969،ص:123، الأعلام للزريكلي ،ج4،دار العلم للملايين ،ط2002،15بيروت لبنان ،ص:160

ISSN : 2543-3938

[5]-تطور المذهب الأشعري ليوسف أحنانة ،مطبعة اليديني، الرباط ،2003، ص:87

[6]- التشوف إلى رجال أهل التصوف لابن الزيات،تحقيق احمد توفيق ،منشورات كلية الآداب مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1997م،ص:123،انس الفقير لابن قنفد القسنطيني اعتنى به محمد الفاسي وادولف فور،منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعو أكدال ،دط، الرباط 1965،ص:12،نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي،ج1 تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس 1989،ص:309، سلوة الأنفاس لمحمد بت جعفر الكتاني ج3،الهيئة العامة لدار الكتب القومية 1989م،ص71شجرة النور الزكية:ج163/1،النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج1،ط2،ص90

[7]- سير أعلام النبلاء72/20،تكملة الصلة :21/3،نفح الطيب للمقري التلمساني،ج2 ،دار الفكر الإسلامي الحديث ،1998،ص:155،شجرة النور الزكية132/1

[8]- فهرس الفهارس عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ،عناية إحسان عباس ،ج1، دار الغرب الإسلامي بيروت،ط2، 1982،ص:802

[9]- بغية الوعاة للسيوطي،ج1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية ،ط1،2004،ص:572،غاية النهاية لابن الجزري،ج1 ، دار الكتب العلمية ،بيروت 2006،ص:370، الأعلام للزريكلي 328/3

[10]- البستان:68،

1-revue africaine.journal de la société historique algérienne par les membres de la société sous la direction du président , jourdan, libraire-éditeur1859 alger p;213

[11]-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م،:86

[12]- شجرة النور الزكية،ج1: 196

[13]- الحلة السيراء لابن الآبار ،ج2،تحقيق حسين مؤنس،دار المعرف ،ط2، القاهرة ،1985،ص:214-217،روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب ،تحقيق عبد القادر محمد عطا ،دار الفكر العربي ،ص:213 الأعلام 282/6

[14]- سير أعلام النبلاء573/7،عنوان الدراية للغبريني ،تحقيق رابح بونار،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1989،ص:209،نفح الطيب 196/2،شجرة النور الزكية196/1،تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل غانزالس فالنسيا ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،ص:387

[15]- المدرسة الشوذية في التصوف الأندلسي،أبو الفا الغنيمي التفتازاني، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية مدريد، السنة 1985 – العدد:23 (ص:175-176)

[16]- الصلة لابن بشكوال ،دار الكتب المصرية، إخراج دار إحياء التراث القاهرة،ص:466، تاريخ اسبانيا لابن الخطيب،تحقيق ليفي بروفنسال،دار المكشوف،ط2،بيروتلبنان،1956،ص:248-254،نفح الطيب305/6،تاريخ الفكر الأندلسي:248

[17]-المدخل الى صناعة المنطق ابن بطليموس:09

[18]- الصلة لابن بشكوال :465،التشوف:118، نفح الطيب 77/2،تاريخ الفكر الأندلسي:369

[19]- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ،ص:330

[20]- التكملة لكتاب الصلة ج1،ص:140

[21]- علم بارع مفسر صنف تفسيرا ضخما توفي 655هـ ، التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار 636/2، الوافي بالوفايات:354/3

[22]- الذيل والتكملة ج6،ص:336

[23]- يقول ابو حيان عن جماعتهم ومازالبن سبعين مشردا في البلاد ينفى من بلد إلى بلد وأصحابه مذمومون مبغوضون.."العقد الثمين:ص:229

[24]- القول منبني عن ترجمة ابن العربي للسخاوي ج2،ص:290، العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ص:329

[25]--نفح الطيب 3،/379-380نكث الهميان في نكت العميان الصفدي، مجلد 1 : ، صفحة188 :

[26]- نفح الطيب 220/2-221

[27]-مقدمة تحقيق كتاب" ترتيب المدارك "للقاضي عياض دار الكتب العلمية بيروت 1998،ص13

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب، مطبعة التقدم،1911، ص:154

[28]- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب، مطبعة التقدم،1911، ص:154

[29]- العبر لابن خلدون، ج6 ، تحقيق عادل بن سعد ، دار الكتب العلمية ،لبنان 2006 ،ص464-466 .

[30]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب عبد الواحد المراكشي المكتبة العصرية للطباعة والنشر2006، ص. 56-57.

[31]- نشر المثاني للقادري، دار الطالب الرباط 1977 ج 1، ص. 374.

[32]- سير أعلام النبلاء 184/18-213، الصلة لابن بشكوال:366-367 نفح الطيب 290/2

[33]- الدعوة الموحدية بالمغرب، لعبد الله علام دار المعرفة القاهرة 1964 ص:304

[34]- مقدمة تحقيق" أعز ما يطلب"، عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغنى للنشر المغرب ،1997 ص29 .

[35]- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد الحجوي الثعالبي دار الكتب العلمية 1995 ج2 ، ص.171 .

[36]- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين،محمد المنوني المطبعة المعدة الرباط 1950 ص.51 .

ISSN : 2543-3938

[37] - قال ابن الخطيب في مجمل ترجمته لابن المرأة أن الناس ابتعدوا عنه لما لعلموا أصول مذهبه الاستسراري ومنهم القاضي أبو بكر بن المرابط .

[38] - عنوان الدراية :209،نفح الطيب 196/2،شجرة النور196/1

[39] - عنوان الدراية:160،أنس الفقير:35،نفح الطيب 162/2

[40] - عنوان الدراية:210،نفح الطيب185/2،شجرة النور 196/1

[41] - أنس الفقير:80،تاريخ الفكر الأندلسي:390

[42] - هناك نسخة من المخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة

[43] - فصوص الحكم1 لابن عربي تحقيق أبو العلاء عفيفي ،دار الكتاب العربي ،ط2،بيروت لبنان ،1980،ص:145

[44] - شرح محاسن المجالس لابن المرأة ،مخطوط بمكتبة ميتشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية،ق:2

[45] - نفسه ق:4

[46] - فصوص الحكم101/1

[47] - شرح محاسن المجالس:ق3

[48] - نفسه:ق:3

[49] - نفسه :ق:5

[50] - نفسه:ق:9

[51] - نفسه:ق:8

[52] - نفسه:ق19

[53] - نفسه:21

[54] - نفسه:ق1

[55] - نفسه:ق2

[56] - نفسه:ق12

[57] - نفسه:ق16

[58] - نفسه:ق13